بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الله عزَّ وجلَّ أمر النَّاس أن يعبدوه؛ فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة:٢١]

ولا تُقبل العبادة إلَّا بشرط الإخلاص، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البيِّنة: ٥].

بل خصَّ الله به نبيَّه محمَّدًا ﷺ ، فقال له: ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الزمر: ٢]، وقد نقل الحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «مدارج السَّالكين» [1] كلام النَّاس في حدِّ الإخلاص، ومرجعه إلى تجريد نيَّة العبادة لله عزَّ وجلَّ وصونها عن جميع الشَّوائب، حتَّى يطرح العبد عن قلبه ملاحظة المخلوقين، وما أحسن قول أبي عثمان سعيد بن إسماعيل رَحِمَهُ اللهُ : «صدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق لدوام النَّظر إلى الخالق» رواه البيهقي في «شعب الإيمان» [2]

فالمخلص هو الَّذي جمع همَّته لإرضاء الله عزّ وجلّ ، فلا يطلب على عمله شاهدًا إلَّا الله، ولا مجازيًا عليه سواه، وكلَّما بعد العبد بعمله عن أعين النَّاس وأسماعهم، كلَّما كان أحفظ لدينه، يقول الله عزَّ وجلّ في شأن الصَّدقة: ﴿ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٧١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧١]، قال الطَّبري رَحِمَهُ اللهُ: «وإن تستروها فلم تعلنوها، وتؤدُّوها للفقراء يعني وتعطوها الفقراء في السِّرِّ فهو خير لكم، ويقول: فإخفاؤكم إيَّاها خيرٌ لكم من إعلانها» [3]

وندب النَّبيُّ ﷺ إلى إخفاء الصَّدقة، فقد أخرج الطَّبراني عن معاوية بن حيدة مرفوعًا، قال: «**صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ**» [4]

ولمَّا ذكر النَّبيُّ ﷺ السَّبعة الَّذين يُظِّلهم الله في ظلِّه يوم القيامة، قال: «**وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ**» متَّفق عليه [5] ، وهذا على سبيل المبالغة في الإخفاء، قال ابن

(١) (٩١/٢)
(٢) (٣٤٨/٥)
(٣) «تفسير الطبري» (٩٢/٣)
(٤) «المعجم الكبير» (٤٢١/١٩) ، وفيه صدقة بن عبد الله السمين، ضعفه البخاري وغيره، وللحديث شواهد بها يصحح، انظر: «صحيح الجامع» (٣٧٥٩)
(٥) «صحيح البخاري» (٦٢٠)، «صحيح مسلم» (١٧١٢)، روياه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

حجر: «فهو على هذا من مجاز التَّشبيه، ويؤيِّده رواية حمَّاد بن زيد عند الجوزقي: تصدَّق بصدقة كأنَّما أخفى يمينه من شماله» [6]

ومن السَّلف من اتُّهِمَ بالبخل؛ لأنَّ صدقته لم تكن ظاهرة للنَّاس، كما روى ابن أبي عاصم عن محمَّد بن إسحاق أنَّه قال: «كان النَّاس من أهل المدينة يعيشون، لا يدرون من أين كان معاشهم، فلمَّا مات عليّ بن الحسين فقدوا ذلك الَّذي كانوا يؤتون باللَّيل» [7]

قال الذَّهبي معلِّقًا: «قلت: لهذا كان يُبَخَّل، فإنَّه ينفق سرًّا ويظنُّ أهله أنَّه يجمع الدَّراهم، وقال بعضهم: ما فقدنا صدقة السِّرّ حتَّى توفي عليٌّ» [8]

ومن السَّبعة الَّذين يظلُّهم الله يوم القيامة: «رَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»، وتأمَّل هذه الكلمة «خاليًا»؛ لتدرك أنَّه قصد بعمله وجهَ الله، إذ لم يشهده أحد من المخلوقين، وقريب من هذا ما رواه أبو داود عن عقبة ابن عامر رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «يَعْجَبُ رَبُّكُمْ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ عَلَى رَأْسِ شظية بِجَبَلٍ، يُؤَذِّنُ بِالصَّلَاةِ وَيُصَلِّي، فَيَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُؤَذِّنُ وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ، يَخَافُ مِنِّي، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي وَأَدْخَلْتُهُ الجَنَّةَ» [9]

فالمخلص يقدِّم العمل في الخلوات عند غفلة النَّاس عنه كما جعل النَّبيُّ ﷺ جوف اللَّيل الآخر أفضلَ ساعاتِ اليوم؛ فقد روى أحمد عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه أنَّه قال للنَّبيِّ ﷺ أيُّ السَّاعات أفضل؟ قال: «**جَوْفُ اللَّيْلِ الآخِرُ**» [10]

وقصد النَّبيُّ ﷺ معنى إخفاء العبادة في هذا الوقت كما في حديث عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - عند التِّرمذي: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصِلُوا الأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلَامٍ**» [11] ، وأوضح منه حديث الطَّبراني عن صهيب بن النُّعمان رضي الله عنه يرفعه: «**فَضْلُ صَلاَةِ الرَّجُلِ فِي بَيْتِهِ عَلَى صَلاَتِهِ حَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ**

(٦) «فتح الباري» (١٤٧/٢)، وانظر: «الثمر المستطاب» (٦٢٩/٢)
(٧) «الزهد» (١٦٦/١)، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (١٣٦/٣)
(٨) «سير أعلام النبلاء» (٣٩٣/٤)
(٩) «سنن أبي داود» (١٠١٧)، ورواه النسائي (٦٦٠)، وأحمد (١٥٧/٤)، وهو صحيح ، انظر: «صحيح الجامع» (٨١٠٢)
(١٠) «المسند» (٣٣٥/٤)، وفي إسناده شهر بن حوشب، ورواه ابن ماجه (١٢٤١) بلفظ: «هل مِن ساعةٍ أحبُّ إلى الله مِن أخرى» ، «صحيح الجامع» (١١٠٦)
(١١) «جامع الترمذي» (٢٤٠٩)، ورواه البيهقي في «الكبرى» (٢٠٢/٢)، والدارمي في «سننه» (٤٠٥/١)، «صحيح الجامع» (٧٨٦٥)

كَفَضْلِ المَكْتُوبَةِ عَلَى النَّافِلَةِ» [12]

ومن آداب الدُّعاء إخفاؤه؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٥]، لذلك أثنى الله على نبيِّه زكرياء بقوله: ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾ ﴾ [مريم: ٣]

وقد ذكر ابن تيميَّة فوائد متعدِّدة لإخفاء الدُّعاء؛ منها: أنَّه أبلغ في الإخلاص [13] ، ومثله يقال في الذِّكر؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، بل غزيرة تدلُّ كلُّها على أنَّ إخفاء العبادة عن مشاهدة النَّاس مقصد شرعيٌّ، وهو مقرَّر عند الصَّحابة رضي الله عنهم، فقد روى هنَّاد بن السري عن الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه أنَّه قال: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَبِيءٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلْيَفْعَلْ**» [14]

ولَمَّا كان بعض النَّاس يجتهدون في إخفاء سيِّئاتهم ما لا يجتهدون في إخفاء حسناتهم تسلَّل العُجْبُ إلى قلوبهم، كما قال أبو حازم سلمة بن دينار: «أخفِ حسنتَك كما تُخفِي سيِّئتك، ولا تكوننَّ مُعجَبًا بعملِك؛ فلا تدري أشقيٌّ أنتَ أم سعيدٌ؟» رواه عنه البيهقيُّ (٣٥٢/٥) في «شعب الإيمان» [15]

والله عزَّ وجلَّ يجزي على إخفاء العبادة ما لا يجزي على غيره، فخصَّ الصَّوم بميزة ليست فيما سواه من أعمال البرِّ كلِّها، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**» متَّفق عليه [16] ، قال أبو عبيد القاسم بن سلاَّم: «إنَّما خصَّ الصِّيام؛ لأنَّه ليس يظهر من ابن آدم بفعله، وإنَّما هو شيء في القلب ... وذلك لأنَّ الأعمال لا تكون إلاَّ بالحركات، إلاَّ الصَّوم فإنَّما هو

(١٢) المعجم الكبير» (٤٦/٨)، وإسناده حسن لأجل محمد بن مصعب القرقسائي، ضعفه ابن معين وغيره، ووثقه أحمد ، «صحيح الجامع» (٤٢١٧)
(١٣) «مجموع الفتاوى» (١٦/١٥)
(١٤) «الزهد» (٤٤٤/٢)، ورواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٩٢/١)
(١٥) ورواه ابن عساكر في «تأريخ دمشق» (٦٨/٢٢)، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٢٤٠/٣) بلفظ: «اكتُم حسنتَك»
(١٦) «صحيح البخاري» (١٧٧١)، و«صحيح مسلم» (١٩٤٢)، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه

بالنِّيَّة الَّتي تخفى عن النَّاس، وهذا وجه الحديث عندي»[١٧]، فانظر كيف أرجع المعنى إلى خفاء الصِّيام عن النَّاس، وهذا تعليل ذكره ابن الجوزي وارتضاه المازري والقرطبي ونقله ابن حجر، ثمَّ قال: «وقد حاول بعض الأئمَّة إلحاق شيء من العبادات البدنيَّة بالصَّوم، فقال: إنَّ الذِّكر بـ «لا إله إلاَّ اللّٰه» يمكن أن لا يدخله الرِّياء؛ لأنَّه بحركة اللِّسان خاصَّة دون غيره من أعضاء الفم، فيمكن للذَّاكر أن يقولها بحضرة النَّاس، ولا يشعرون منه بذلك»[١٨]

وتأمَّل ـ يا رعاك اللّٰه ـ صنيع السَّلف، فإنَّهم كانوا يكرهون أن يظهر الرَّجل أحسن ما عنده، كما حكاه عنهم إبراهيم النَّخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١٩]، وأخرج الطَّبري عن الحسن البصري أنَّه قال: «ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السِّرِّ فيكون علانية أبدًا»[٢٠]، وبلغ بأحدهم الإخلاص فأخفى عبادته عن أهل بيته كما ذكر الذَّهبي عن الفلاس أنَّه قال: «قال الخريبي: كانوا يستحبُّون أن يكون للرَّجل خبيئة من عمل صالح لا تعلم به زوجته ولا غيرها»[٢١]، وقال الذَّهبي: «قال الفلاس: سمعت ابن أبي عدي يقول: صام داود بن أبي هند أربعين سنة، لا يعلم به أهله، كان خزازًا يحمل معه غداءه فيتصدَّق به في الطَّريق»[٢٢]، هؤلاء القوم خلعوا من قلوبهم حبَّ الشُّهرة والحظوة حتَّى التزموا التَّورية عند المضايق، قال الذَّهبي: «روى سليمان بن حرب عن حمَّاد قال: كان أيُّوب في مجلسٍ، فجاءته عبرة فجعل يتمخَّط ويقول: ما أشدَّ الزُّكام»[٢٣]، وكان بعضهم أشدّ إخفاء لعبادته من بعض، قال الذَّهبي: «قال ابن وهب: ما رأيت أحدًا أشدّ استخفاءً بعمله من حيوة»[٢٤]

وعمد بعض أهل العلم السَّابقين إلى إخفاء كتبهم العلميَّة، ولم تظهر إلاَّ بعد وفاتهم ككتب أبي الحسن الماوردي، كما ذكره ابن خلكَّان في «وفيات الأعيان»[٢٥]

(١٧) «غريب الحديث» (١٩٥/٢)، وانظر معه «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٨/٤)، و «مفتاح دار السعادة» (٣٢٣/٢)

(١٨) «فتح الباري» (١٠٨/٤)

(١٩) رواه هنَّاد في «الزهد» (٤٤٥/٢)، وأبو خثيمة في «العلم» (١٣/١)

(٢٠) «تفسير الطبري» (٢٠٦/٨)

(٢١) «سير أعلام النبلاء» (٣٧٨/٦)

(٢٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/٦)

(٢٣) «سير أعلام النبلاء» (٤٠٥/٦)

(٢٤) «سير أعلام النبلاء» (٤٠٦/٦)

(٢٥) «وفيات الأعيان» (٢٢٨/٣)

وفوائد الإخلاص كثيرة وعوائده جليلة عظيمة، وإن لم يكن في الإخلاص وإخفاء العبادة عن النَّاس سوى حبِّ اللّٰه لكفى به فضلاً وشرفًا، روى مسلم عن سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ الغَنِيَّ الخَفِيَّ**»[٢٦]، وثبت شرعًا وقدرًا أنَّ الجزاء من جنس العمل، فكما أخفى العبد عمله عن النَّاس في الدُّنيا، أخفى اللّٰه له ثوابه جزاءً وِفَاقًا، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ ﴾ [السَّجدة:١٧]، أخرج الطَّبري عن الحسن قال: «أَخْفَوْا عَمَلاً فِي الدُّنْيَا فَأَثَابَهُمُ اللّٰهُ بِأَعْمَالِهِمْ»[٢٧]

ثمَّ اعلم ـ رحمني اللّٰه ـ وإيَّاك أنَّ قصد مشاهدة النَّاس لعملك مذموم كلّه إلاَّ إن قصد بالمشاهدة مصلحة شرعيَّة، ومثَّل له ابن القيِّم بالرَّجل يتصدَّق جهرًا ليستحثَّ النَّاس على الصَّدقة والعطيَّة، ثمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه مراءاة محمودة حيث لم يكن الباعث عليها قصد التَّعظيم والثَّناء، وصاحبها جديرٌ بأن يحصل له أجور أولئك المعطين»[٢٨]، فأرجع الأمر إلى كون العمل يتعدَّى نفعه إن شاهده النَّاس، ومن هذا قول اللّٰه تعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤ ﴾ [النساء: ١١٤]، فَنَفَى الخيرَ عن كثير ممَّا يتناجى النَّاس به إلاَّ في الأمر بالمعروف، وخصَّ من أفراده الصَّدقة والإصلاح بين النَّاس لعموم نفعها، ذكره ابن رجب ثمَّ قال: «بخلاف من صلَّى وصام وذكر اللّٰه يقصد بذلك عرض الدُّنيا؛ فإنَّه لا خير له فيه بالكليَّة؛ لأنَّه لا يتعدَّى نفعه إلى أحد، اللَّهمَّ إلاَّ أن يحصل لأحدٍ اقتداءً في ذلك»[٢٩]، وتمام الإخلاص تنقية العمل من جميع الشَّوائب، فإن عرض قصد المشاهدة أثناء العمل وجب طرده، ولا ينبغي ترك العمل إذ ذاك كما قال الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ترك العمل من أجل النَّاس رياء، والعمل من أجل النَّاس شرك، والإخلاص أن يعافيك اللّٰه منهما»[٣٠]

واللّٰه أعلم، وصلَّى اللّٰه على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مجلَّة الإصلاح العدد (١٠)

(٢٦) «صحيح مسلم» (٥٢٦٦)

(٢٧) «تفسير الطبري» (١٠٦/٢١)

(٢٨) «مدارج السالكين» (٨٥/٢)

(٢٩) «جامع العلوم والأحكام» (١٢/١)

(٣٠) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٤٧/٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩٥/٨)

سلسلة مطويات دعوية : (4)

العبادة

بين الإسرار والإعلان

www.rayatalislah.com

إعـداد
خالد أوصيف

قال ابنُ المبارك: "لا أعلمُ بعدَ النبُوةِ [درجةً] أفضلَ من بثّ العلمِ"
[«تاريخ دمشق» (32/455)]